والوارد الإلهى لا يجد له معارضة فى النفس البشرية ، وقد أوحى الله ليوسف ما يُؤنِسُ وحشته[1] حين ألقاه إخوته فى الجُبِّ الذى ابتعد فيه عن حنان أبيه وأنسه بأخيه ، ومفارقته لبلده التى درج[2] فيها وأُنْسه بالبيئة التى اعتاد عليها .

فكان لا بُدَّ أن تعطيه السماء دليلاً على أن ما حدث له ليس جَفْوة لك يا يوسف ؛ لكنه إعداد لك لتقابل أمراً أهمّ من الذى كنت فيه ؛ وأن غُرَماءك ـ وهم إخوتك ـ سوف يُضطَّرون لدقِّ بابك ذات يوم يطلبون عَوْنك ، ويطلبون منك أقواتهم ، وستعرفهم أنت دون أن يعرفوك .

هذا من جهة يوسف ؛ وجهة الجُبِّ الذى ألقوْه فيه ، وبقى أن تعالج القصة أمر الإخوة مع الأب ، فيقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

وهنا تتجلى لنا قدرة أداء القرآن أداء دقيقاً معبراً عن الانفعالات التى توجد فى النفس الإنسانية ، فها هم إخوة خدعوا أباهم ومكروا

---

(١) ومما ورد فى هذا ما نقله القرطبى فى تفسيره (٣٤٦٥/٤) : « قال الضحاك : نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو فى الجب فقال له : ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهن عجل الله لك خروجك من هذا الجب ؟ فقال : نعم . فقال له : قل يا صانع كل مصنوع ، ويا جابر كل كسير ، ويا شاهد كل نجوى ، ويا حاضر كل ملا ، ويا مفرج كل كربة ، ويا صاحب كل غريب ، ويا مؤنس كل وحيد ، ايتنى بالفرج والرجاء ، واقذف رجاءك فى قلبى حتى لا أرجو أحداً سواك .

فرددها يوسف فى ليلته مراراً ، فأخرجه الله فى صبيحة يومه ذلك من الجبّ » .

(٢) يقال للصبى إذا دَبَّ وأخذ فى الحركة : درج . ودرج الشيخ والصبى يدرج فهو دارج : مشيا مَشْياً ضعيفاً ودَبًّا . [لسان العرب ـ مادة : درج] .

بأخـيهم ، وأخـذوه وألقوه فى الجُبِّ مع أنهم يعلمـون أن أباه يحـبه ، وكان ضنيناً[١] أن يأتمنهم عليه ، فكيف يواجهون هذا الأب ؟

هذا هو الانفعال النفسى الذى لا تستطيع فطرة أن تثبته ؛ فقالوا : نؤخـر اللقاء لأبينا إلى العـشـاء : والعشـاء مَحَلُّ الظلمـة ، وهو سـتـر للانفـعالات التى توجـد على الوجـوه من الاضطراب ؛ ومن مناقضـة كذب ألسنتهم ؛ لأنهم لن يخبروا الأب بالواقع الذى حدث ؛ بل بحديث مُخْتلق[٢] .

وقد تخدعهم حركاتهم ، ويفضـحهم تلجلجهم ، وتتكشف سيماهم الكاذبة أمـام أبيهم ؛ فـقالوا : الليل أخْـفَى للوجه من الـنهار ، وأسـتَر للفضائح ؛ وحين ندخل على أبينا عشَاءً ؛ فلن تكشفنا انفعالاتنا .

وبذلك اختاروا الظرف الزمنى الذى يتوارون فيه من أحداثهم :

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يوسف]

والبكاء انفعـال طبيـعى غريزى فطرىّ ؛ ليس للإنسـان فيه مـجال اختيار ؛ ومَنْ يريد أن يفتعله فهو يتباكى ، بأن يَفْرُك عينيه ، أو يأتى ببعـض ريقه ويُقرِّبـه من عينيه ، ولا يـستر ذلك إلا أن يكـون الضوء

---

(١) ضننت بالشىء أضـن : بخلت بـه ، وهو ضنين بـه . ورجل ضنيـن : بخـيل . والـضِّنَّة والضَّن : الإمسـاك والبخل . وقـال تعالى : ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [التكوير] فهو لا يكتم غيباً عن رسول الله ، بل يبلغه كل ما أوحاه الله إليه من خبر السماء . [راجع لسان العرب ، والقاموس القويم] .

(٢) خلق الكذب والإفك يخلقه وتخلَّقه واختلقه وافتراه : ابـتدعه. الاختلاق : الكذب ، وهو افتعال من الخلق والإبداع كأن الكاذب تخلَّق قوله . [لسان العرب ـ مادة : خلق]

خافتاً ؛ لذلك جاءوا أباهم عشاء يُمثِّلون البكاء[1] .

والحق سبحانه حينما تكلم عن الخصائص التى أعطاها لذاته ، ولم يُعْطها لأحد من خلقه ؛ أعلمنا أنه سبحانه هو الذى يميت ويحى ، وهو الذى يُضحك ويُبْكى .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) ﴾ [النجم]

ولا يوجد فَرْق بين ضحك أو بكاء إنسان إنجليزى وآخر عربى ؛ ولا يوجد فرق بين موت أو ميلاد إنسان صينى وآخر عربى أو فرنسى ؛ فهذه خصائص مشتركة بين كل البشر .

وإذا ما افتعل الإنسان الضحك ؛ فهو يتضاحك ؛ وإذا ما افتعل الإنسان البكاء فهو يتباكى ؛ أى : يفتعل الضحك أو البكاء . والذى يفضح كل ذلك هو النهار .

والتاريخ يحمل لنا الكثير من الحكايات عن اتخاذ الليل كستار للمواقف ؛ والمثل فى سيدنا الحسين رضى الله عنه وأرضاه ؛ حين جاءت موقعة كربلاء ، ورأى العدو وقد أحاط به ؛ ورأى الناس وقد انفضوا عنه بعد أن دَعَوْهُ ليبايعوه ، ولم يَبْقَ معه إلا قلة ؛ وعَزَّتْ عليه

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٦٦/٤) : « قال علماؤنا : هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تصنعاً ، فمن الخلق من يقدر على ذلك ، ومنهم من لا يقدر . وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يخفى ، كما قال حكيم :

إذا اشتبكتْ دُمُوعٌ فى خُدودٍ ... تبيَّن مَنْ بكَى مِمَّنْ تباكَى » .

نفسه ؛ وعزَّ عليه أن يقتل هؤلاء في معركة غير متكافئة صمم هو على دخولها .

فلما أقبل الليل دعا أصحابه وقال لهم :

« إن كنتم قد استحييتم أن تفروا عني نهاراً ، فالليل جاء وقد ستركم ، فمَنْ شاء فليذهب واتركوني »[1] .

يقص الحق سبحانه ما بدر منهم فَوْرَ أنْ دخلوا على أبيهم :

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ[2] وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾

كلمة : ﴿نَسْتَبِقُ .. ﴿١٧﴾﴾ [يوسف]

تعبر عن بيان تفوُّق ذات على ذات في حركة ما ؛ لنرى من

(١) ذكر ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية ١٧٨/٨) أن الحسين بن علي رضي الله عنه قال لأصحابه : « من أحب أن ينصرف إلى أهله في ليلته هذه فقد أذنت له فإن القوم إنما يريدونني ، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً ، ليأخذ كل منكم بيد رجل من أهل بيتي ثم اذهبوا في بسيط الأرض في سواد هذا الليل إلى بلادكم ومدائنكم فإن القوم إنما يريدونني ، فلو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري ، فاذهبوا حتى يفرج الله عز وجل » .

(٢) استبقا : تباريا ليسبق كل منهما الآخر . واستبقا الشيء : تباريا في الجرى نحوه للوصول إليه . ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ .. ﴿١٧﴾﴾ [يوسف] أي : نتبارى في الجرى والسبق . ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ .. ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف] حاول كل منهما أن يصل إليه قبل الآخر . ويقول تعالى : ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ .. ﴿١٤٨﴾﴾ [البقرة] تباروا في الوصول إليها أو فعلها قبل غيركم . [القاموس القويم ٣٠٢/١] .

سيسبق الآخر ؛ فحين يتسابق اثنان فى الجرى نرى مَنْ فيهما سبق الآخر ؛ وهذا هو الاستباق .

وقد يكون الاستباق فى حركة بآلة ؛ كأن يمسك إنسان ببندقية ويُصوِّبها إلى الهدف ؛ ويأتى آخر ويمسك ببندقية أخرى ويحاول أن يصيب الهدف ؛ ومَنْ يسبق منهما فى إصابة الهدف يكون هو المتفوق فى هذا المجال .

وقد يكون الاستباق فى الرمى بالسهام ؛ ونحن نعرف شكل السهم ؛ فهو عبارة عن غُصْن مَرِن ، يلتوى دون أن ينكسر ؛ ومُثبَّت عليه وتر ، ويوضع السهم فى منتصف الوتر ، ليشده الرامى فينطلق السهم إلى الهدف .

وتُقَاسُ دقة إصابة الهدف حسب شدة السهم وقوة الرمى ، ويسمى ذلك «تحديد الهدف» .

أما إذا كان التسابق من ناحية طول المسافة التى يقطعها السهم ؛ فهذا لقياس قوة الرامى .

وهكذا نجد الاستباق له مجالات متعددة ؛ وكل ذلك حلال ؛ فهم أسباط وأولاد يعقوب ، ولا مانع أن يلعب الإنسان لُعْبة لا تُلهيه عن واجبه ؛ وقد تنفعه فيما يَجِدُّ من أمور ؛ فإذا التقى بعدو نفعه التدريب على استخدام السهم أو الرمح أو أداة قتال ؛ واللعب[1] الذى لا يَنْهى عن طاعة ، وينفع وقت الجد هو لَعِب حلال .

---

(١) اللعب قد يكون محموداً إذا لم يتعارض مع القيم الفاضلة ، أما إذا كان اللعب قد يلهى الإنسان عن الواجبات فهو مذموم ، واللهو لا يكون إلا مذموماً .

وهناك ألعاب قد لا يدرك الناس لها غاية مثل كرة القدم .

وأقول : قد يوجد عَدوَّان ؛ وبينهما قنبلة موقوتة ؛ ويحاول كل طرف أن يبعدها عن موقعه ، والقوة والحكمة تظهر فى محاولة كل فريق فى إبعاد الكرة عن مرماه .

ولكن لا بد ألا يُلْهى لعب الكرة عن واجب ؛ فمثلاً حين يؤذن المؤذن للصلاة ، الواجب علينا ألا نهمل الصلاة ونواصل اللعب ، وعلى اللاعبين أن يُراعُوا عدم ارتداء ملابس تكشف عن عوراتهم .

وأبناء يعقوب قالوا :

﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا[1] .. (١٧) ﴾ [يوسف]

وفى هذا إخلال بشروط التعاقد مع الأب الذى أذنَ بخروج يوسف بعد أن قالوا :

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ .. (١٢) ﴾ [يوسف]

وقالوا :

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾ [يوسف]

وقالوا :

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) ﴾ [يوسف]

فهل أخذتموه معكم ليرتع ويلعب ، ويأكل من ثمار الأشجار والفاكهة ؛ وتحفظونه ، أم ليحفظ لكم متاعكم وأنتم تستبقون .

---

(١) المتاع : يطلق على الكثير والقليل باعتباره مصدراً ويجمع على أمتعة باعتبار ما ينتفع به وما يتمتع به . قال تعالى : ﴿ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ .. (١٧) ﴾ [الرعد] أى : وصنع أشياء ينتفع بها ، وقال تعالى : ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ .. (١٠٢) ﴾ [النساء] جمع متاع بمعنى أشياء ينتفع بها من طعام وأدوات للحرب ومال ونحو ذلك . [القاموس القويم ٢/٢١٥] .

وهذا أول الكذب الذى كذبوه ؛ وهـذه أول مخالفـة لشرط إذن والده له بالخروج معكم ؛ ولأن «المريب يكاد يقول خذونى » نجدهم قد قالوا :

﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) ﴾ [يوسف]

أو : أنهم قالوا ذلك لأنـهم يعلمون أن والدهم لن يُصـدِّقهم مهـما قالوا . ونعلم أن « آمن » إما أن تتعدى إلى المفعول بنفسها مثل «آمنه الله من الجوع » ، أو قوله الحق :

﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

أو : تجىء بالباء ، ويُقال « آمن به » أى : صدَّق واعتقد .

أو : يُقَال « آمن له » أى : صدَّقه فيما يقول .

وهم هنا يتهمون أباهم أنه مُتحَدٍّ لهم ، حتى ولو كانوا صادقين ، وهم يعلمون أنهم غير صادقين ؛ ولكن جاءوا بكلمة الصدق ليداروا كذبهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ(١) بِدَمٍ كَذِبٍ(٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ(٣) لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾

---

(١) القـميص : مـا يحيط بالبـدن وقد يُسمَّى شـعارًا ومـا فوقـه دثار ، وقد يُسمَّى كل ثوب قميصاً . والجمع اقمصة وقُمص وقُمْصان . [القاموس القويم ٢/١٣٣] .

(٢) « قال مجاهد : كـان دم سخلة أو جدى ذبحوه . وقال قتادة : كـان دم ظبية ، أى : جاءوا على قميصه بدم مكذوب فيه . وقرأ الحسن وعائشة : « بدم كدب » بالدال غيـر المعجمة ، أى : بدم طرى . وحكى أنه المتغير . قاله الشعبى » (تفسير القرطبى ٤/٣٤٧١) .

(٣) سولت نفسه له أمـراً : زينته له ليفعله . وسول له الشيطان : أغواه . والتـسويل : تحسين الشىء وتزيينه وتحبيبه إلى الإنسان ليفعله أو يقوله . [لسان العرب ـ مادة : سول] .

كأن قميص يوسف كان معهم . ويُقال : إن يعقوب علَّق على مجيء القميص وعليه الدم الكذب بأن الذئب كان رحيماً ، فأكل لحم يوسف ولم يُمزِّق قميصه ؛ وكأنه قد عرف أن هناك مؤامرة سيكشفها الله له[1] .

ويصف بعض العلماء قصة يوسف بقصة القميص :

فهنا جاء إخوته بقميصه وعليه دم كذب .

وفي أواسط السورة[2] تأتي مسألة قميص يوسف إن كان قد شُقَّ من دُبُرٍ لحظة أنْ جذبتْه امرأة العزيز لتراوده[3] عن نفسه .

وفي آخر السورة[4] يرسل إخوته بقميصه إلى والده فيرتد بصره .

ولهذا أخذ العلماء والأدباء كلمة القميص كرمز لبعض الأشياء ؛ والمثل هو قول الناس عن الحرب بين علي رضي الله عنه ومعاوية

---

(١) نقل القرطبي في تفسيره (٣٤٧١/٤) « أن يعقوب عليه السلام لما تأمل القميص فلم يجد فيه خَرقاً ولا أثرًا استدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص . قاله ابن عباس وغيره » .

(٢) وذلك في قوله تعالى : ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٢٧﴾ [يوسف] .

(٣) راوده على الشيء : مراودة : طلبه منه بجهد وحيلة ومساومة ، وقوله تعالى : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ .. ۝٢٣﴾ [يوسف] أي : طلبت منه نفسه في محاولة ومخادعة . [القاموس القويم ٢٨١/١ بتصرف] .

(٤) وذلك في قوله تعالى عن يوسف عليه السلام أنه قال لإخوته : ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا .. ۝٩٣﴾ [يوسف] .

رضى الله عنه أن معاوية أمسك بقميص عثمان بن عفان طلباً للثأر من على ، فقيل «قميص عثمان » رمزاً لإخفاء الهدف عن العيون ، وكان هدف معاوية أن يحكم بدلاً من على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ [1] .. ⑱ ﴾ [يوسف]

وكأن القميص كان معهم ، ووضعوا عليه دماً مكذوباً ، لأن الدم لا يكذب ، إنما كذب مَنْ جاء بدم الشاة ووضعه على القميص .

وشاء الحق سبحانه هنا أن يُعطى الوصف المصدرى للمبالغة ؛ وكأن الدم نفسه هو الذى كذب ؛ مثلما تقول « فلان عادل » ويمكنك أن تصف إنساناً بقولك « فلان عَدْل » أى : كأن العدل تجسَّد فيه ، أو قد تقول « فلان ذو شرّ » ، فيرد عليك آخر « بل هو الشر بعينه » ، وهذه مبالغة فى الحدث .

وهل كان يمكن أن يُوصَف الدم بأنه دم صادق ؟

نقول : نعم ، لو كان الذئب قد أكل يوسف بالفعل ؛ وتلوَّث قميص يوسف بدم يوسف وتمزق . ولكن ذلك لم يحدث ، بل إن الكذب يكاد يصرخ فى تلك الواقعة ويقول « أنا كذب » .

فلو كان قد أكله الذئب فعلاً ؛ كان الدم قد نشع من داخل القميص لخارجه ؛ ولكنهم جاءوا بدم الشاة ولطخوا به القميص من الخارج .

---

(١) هذا أسلوب الإعجاز البلاغى ، وفيه إشارة إلى قضية ملفقة .

وبالله ، لو أن الذئب قد أكله فعلاً ، ألم تكُنْ أنيابه قد مزَّقَتْ القميص ؟

وحين انكشف أمرهم أمام أبيهم ؛ أشار أحدهم خُفْيَة للباقين وقال لهم همساً : قولوا لأبيكم : إن اللصوص قد خرجوا عليه وقتلوه ؛ فسمع يعقوب الهمس فقال : اللصوص أحوَجُ لقميصه من دمه[١] ؛ وهذا ما تقوله كتب السير.

وهذا ما يؤكد فراسة يعقوب ، هذه الفراسة[٢] التى يتحلى بها أىُّ محقق فى قضية قتل ؛ حين يُقلِّب أسئلته للمتهم وللشهود ؛ لأن المحقق يعلم أن الكاذب لن يستوحى أقواله من واقع ؛ بل يستوحى أقواله من خيال مضطرب .

ولذلك يقال : « إن كنت كذوباً فكُنْ ذَكُوراً »[٣] .

ويأتى هنا الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [يوسف]

« والسَّوَل » : هو الاسترخاء ؛ لأن الإنسان حين تكون أعصابه

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٣٤٧٢/٤) محاولات أبناء يعقوب تبرير ما حدث وانكشاف أمرهم أمام أبيهم لفراسته فقال : « روى أنهم قالوا له : بل اللصوص قتلوه ، فاختلف قولهم ، فاتهمهم ، فقال لهم يعقوب : تزعمون أن الذئب أكله ، ولو أكله لشقّ قميصه قبل أن يفضى إلى جلده ، وما أرى بالقميص من شق ، وتزعمون أن اللصوص قتلوه ، ولو قتلوه لأخذوا قميصه ، هل يريدون إلا ثيابه ؟! » .

(٢) الفراسة : فى النظر والتثبت والتأمل للشىء والبصر به ولهما معنيان قالهما ابن الأثير :
أحدهما : ما يُوقعه الله تعالى فى قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس .
الثانى : نوع يُتعلّم بالدلائل والتجارب والخَلْق والأخلاق ، فتُعرف به أحوال الناس » . نقله ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : فرس] .

(٣) الذكر : الحفظ للشىء تذكره . ورجل ذَكيرٌ : جيد الذكر والحفظ . والذكر والذكرى : نقيض النسيان . والتذكر : تذكر ما انسيته . [لسان العرب ـ مادة : ذكر] .

مشدودة ؛ ثم يحب أن يسترخى ، فيستريح قليلاً ، وبعد ذلك يجد فى نفسه شيئاً من اليُسْر فى بدنه ونبضه .

ونأخذ ﴿ سَوَّلَتْ .. ⁽١٨⁾ ﴾ [يوسف]

هنا بمعنى يَسَّرت وسهَّلتْ ، وما دامت قد سوَّلتْ لكم أنفسكم هذا الأمر فسوف أستقبله بما يليق بهذا الوضع ، وهو الصبر .

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. ⁽١٨⁾ ﴾ [يوسف]

والذين يحاولون اصطياد خطأ فـى القرآن يقولون « وهل يمكن أن يكون الصبر جميلاً ؟ » .

نقول : هم لا يعرفـون أن الصبر يُقال فيه « اصـبر عن كذا » إذا كان الأمر عن شهوة قد تُورث إيلاماً ؛ كأن يُقال « اصبر عن الخمر » أو « اصبر عن الميسر » أو « اصبر عن الربا » .

ويُقال « اصبر على كذا » إذا كان الصـبر فيه إيلام لك . والصبر يكون جميلاً حينما لا تكون فيه شكوى أو جزع .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ وَاهْجُرْهُمْ [1] هَجْراً جَمِيلاً ⁽١٠⁾ ﴾ [المزمل]

وهؤلاء الذين يبحثون عن تناقض أو تضارب فى القرآن إنما هم قوم لا يعرفون كيفـية استقباله وفهمه ؛ وقد بـيَّن لنا يعقوب عليه السلام أن الصبر الجميل هو الصبر الذى لا شكوى فيه ، وهو القائل :

﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللَّهِ ..⁽٨٦⁾ ﴾ [يوسف]

---

(١) هجره يهجره هجراً وهجراناً : تـركه مع سخط ونفور . قال تعالى : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⁽٥⁾ ﴾ [المدثر] أى : اترك الرجز كله نافراً منه كارهاً له . وهذا الأمر بالنسبة للرسول ﷺ معناه : اثبت على هجره لأنه لم يفعل رجزاً . وقوله تعالى : ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ⁽١٠⁾ ﴾ [المزمل] أى : اتركهم وابتعد عنهم فى سماحة بغير إيذاء . [القاموس القويم ٢/٢٩٨] .

وهكذا نعلم أن هناك فارقاً بين الشكوى للربِّ ؛ وشكوى من قدر الربِّ .

ولذلك يقول يعقوب عليه السلام هنا :

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ[1] .. ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف]

ويتبعها :

﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف]

كأن الصبر الجميل أمر شاقٌّ على النفس البشرية ، ولم يكُنْ يعقوب قادراً على أن يُصدِّق ما قاله أبناؤه له ؛ فكيف يُصدِّق الكذب ؟ وكيف يمكن أن يواجه أبناءه بما حدث منهم ؟ وهم أيضاً أبناؤه ؛ لكنه كان غير قادر على أن يكشف لهم كذبهم .

والمثل لذلك ما جاء في التراث العربي حين قِيلَ لرجل : إن ابنك قد قتل أخاك ، فقال :

أقولُ لنفسي تأساء وتعزيةً إحدى يدىَّ أصابتْنى ولم تُردِ

كلاهُمَا خلف عَنْ فَقْدِ صاحبِه هذا أخى حين أدعُوه وذَا ولدِى

ومثل هذه المواقف تكون صعبة وتتطلب الشفقة ؛ لأن مَنْ يمر بها يحتار بين أمر يتطلب القسوة وموقف يتطلب الرحمة ؛ وكيف يجمع إنسان بين الأمرين ؟

إنها مسألة تعزُّ عل خَلْق الله ؛ ولا بد أن يفزع فيها الإنسان إلى الله ؛ ولذلك علَّمنا ﷺ أنه إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة[2] ؛ وحزبه أمر

---

(١) الصبر الجميل هو الصبر مع الرضى ، والتفويض لمن بيده الأمر : من مفهوم خواطر الإمام.

(٢) عن حذيفة قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣٨٨/٥) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

ما يعنى : أن مواجهة هذا الأمر تفوق أسباب الإنسان ؛ فيلجأ إلى المُسبِّب الأعلى ؛ ولذلك قال يعقوب عليه السلام :

﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [يوسف]

وقوله : « تصفون » يعنى : أنكم لا تقولون الحقيقة ، بل تصفون شيئاً لا يصادف الواقع ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ(١) أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ.. (١١٦) ﴾ [النحل]

أى : أن ألسنتكم نفسها تَصِفُ الكلام أنه كذب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) ﴾ [الصافات]

وتعنى أن هؤلاء الذين قالوا ما قيل عنه أنه وصف قد كذبوا فيما قالوا ؛ وكان مصير كذبهم مفضوحاً .

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ(٢) وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [يوسف]

وهكذا عبَّر يعقوب عليه السلام عن نفسه ؛ فالجوارح قد تكون ساكنة ؛ لكن القلب قد يزدحم بالهموم ويفتقد السكون ؛ لذلك لا بد من الاستعانة بالله .

---

(١) وصف الأمر : ذكره وعرَّفه وتحدَّث به . قال تعالى : ﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ .. (١١٦) ﴾ [النحل] أى : تذكره وتقوله . وقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) ﴾ [الأنعام] أى : من الوصف الذى يصفونه به مما لا يليق بكماله كوجود شريك له أو ابن أو غير ذلك ، وقال تعالى : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ .. (١٣٩) ﴾ [الأنعام] . أى : جزاء وصفهم وعقابه . [القاموس القويم ٢/٣٣٩] .

(٢) الجمال : البهاء والحسن يوصف به الحسىّ والمعنوى . قال تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. (١٨) ﴾ [يوسف] وهو جمال معنوى ، وقوله : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) ﴾ [الحجر] الذى لا لوم معه ولا عتاب . والسراح الجميل : الطلاق المصحوب بالإحسان إلى المطلقة ومنحها حقوقها كاملة وبغير إيذاء ، وقوله : ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) ﴾ [المزمل] لا إيذاء فيه بقول أو عمل. [القاموس القويم ١/١٢٨] .

وقد علَّمنا الحق سبحانه أن نقول فى فاتحة الكتاب :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ﴾ [الفاتحة]

فأنت تقف لعبادة الله وبين يديه ؛ لكن الدنيا قد تشغلك عن العبادة أثناء أداء العبادة نفسها ؛ لذلك تستعين بخالقك لتُخلص فى عبادتك .

وبعد أن عرض الحق سبحانه لموقف الأب مع أولاده ، نأتى لموقف يوسف عليه السلام فى الجُبِّ .

يقول سبحانه :

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ[1] فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ[2] فَأَدْلَى دَلْوَهُ[3] قَالَ يَا بُشْرَى[4] هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ[5] بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) ﴾

---

(١) السيارة : الجماعة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ (١٩)﴾ [يوسف] أى : جماعة مسافرة . وقوله تعالى : ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ (٩٦)﴾ [المائدة] للمسافرين . [القاموس القويم ١/ ٣٤٠] .

(٢) وردت الماء إذا حضرته لتشرب . والوِرْد : الماء الذى ترد عليه . والواردة : وُرَّاد الماء . والورد : الوراد وهم الذين يردُون الماءَ . [لسان العرب ـ مادة : ورد] . ورد الماء : قصده وبلغه ووصل إليه .

(٣) الدلو : الوعاء الذى يخرج الماء من البئر ونحوه . قال تعالى : ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ..(١٩)﴾ [يوسف] أى : أنزله فى البئر ليخرج منه ماء . [القاموس القويم ١/ ٢٣١] .

(٤) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٧٥) : « فى معناه قولان :

أحدهما : اسم الغلام .

الثانى : يا أيتها البشرى هذا حينك وأوانك . قال قتادة : بشَّر أصحابه بأنه وجد عبداً . قال السدى : نادى رجلاً اسمه بشرى . قال النحاس : قول قتادة أولى ، لأنه لم يأت فى القرآن تسمية أحد إلا يسيراً . قال القرطبى : وهذا أصح لأنه لو كان اسماً علماً لم يكن مضافاً إلى ضمير المتكلم » .

(٥) أسررت الأمر والحديث : أخفيته . وأسر إليه الحديث : ألقاه إليه سراً ولم يُطلع عليه أحداً معه . وقوله : ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ ..(٥٤)﴾ [يونس] أخفوها فى صدورهم وفى سرائرهم . وقوله فى قصة يوسف : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً .. (١٩)﴾ [يوسف] أخفوه . وقوله : ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ..(١)﴾ [الممتحنة] أى : يسرون إليهم أنباء المسلمين وأحوالهم بسبب المودة بينكم ، وهو تبكيت وتوبيخ لمن يفعل ذلك ، أو تخفون المودة لهم ، أى : تجعلون مودتكم لهم سرًا ، وتخفونها عن المسلمين نفاقاً وخداعاً . [القاموس القويم ١/ ٣١٠] .

ولم يَقُلِ الحق سبحانه من أين جاء السيارة ؟ أو إلى أين كانوا ذاهبين ؟

والمقصود بالسيارة هم القوم المحترفون للسير ، مثل مَنْ كانوا يرحلون فى رحلة الشتاء والصيف ؛ بهدف التجارة وجَلْب البضائع .

وكانت السيارة لا تنتقل بكامل أفرادها إلى البئر ، بل يذهب واحد منهم إلى البئر ؛ ليأتى لهم بالمياه ويُسمَّى الوارد ، وذهب هذا الوارد إلى البئر ليُحضِر لبقية السيارة الماء وألقى دَلْوه فى البئر ؛ ويسمى حبل الدلو الرشاء .

وحين نزل الدلو إلى مستوى يوسف عليه السلام تعلق يوسف فى الحبل ؛ فأحسَّ الوارد بثقل ما حمله الرشاء ؛ ونظر إلى أسفل ؛ فوجد غلاماً يتعلق بالدلو فنادى :

﴿ يَا بُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلامٌ .. (١٩) ﴾ [يوسف]

أى : أنه يقول يا بشرى هذا أوانك ؛ وكأنه يبشر قومه بشىء طيب ؛ فلم يحمل الدلو ماء فقط ، بل حمل غلاماً أيضاً .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً .. (١٩) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم أخفوْه وعاملوه كأنه بضاعة ، ولم يتركوه يمشى بجانبهم؛

خشية أن يكون عبداً آبقاً[1] ويبحث عنه سيده ؛ وهم يريدون بيعه .

ويذيل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .. (١٩) ﴾ [يوسف]

وهذا قول يعود على مَنْ أسرُّوه بضاعة ؛ وهم الذين عرضوه للبيع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ[2] دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) ﴾

ونعلم أنهم لم يشتروه بل عثروا عليه ؛ ونعلم أن كلمة شراء تدل على البيع أيضاً ، أى : أنهم باعوه بثمن بخس ؛ أى : بثمن زهيد ، وكانت العبيد أيامها مُقوَّمة بالنقود .

والبخس أى : النقص ، وهو إما فى الكمّ أو فى الكَيْف ؛ فهو يساوى مثلاً مائة درهم وهم باعوه بعشرين درهماً فقط ؛ وكان العبد فى عُمر يوسف يُقوَّم بالنقد ؛ وهم باعوه بالبخْس ، وبثمن أقل قيمة إما كمًّا وإما كَيْفا .

---

(١) ابق يابق : هرب من مالكه ، قال تعالى : ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) ﴾ [الصافات] جعل ترك يونس عليه السلام قومه إباقاً لأنه مملوك لله وللرسالة التى كلفه الله أن يقوم بها . [القاموس القويم : ١/٤] .

(٢) بخسه حقه بخساً : نقصه حقه ولم يُوفِّه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ (٨٥) ﴾ [الأعراف] . والثمن البخس : القليل الناقص عن مثله : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ .. (٢٠) ﴾ [يوسف] وقوله : ﴿ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) ﴾ [الجن] أى : لا يخاف نقصاً ولا ظلماً . [القاموس القويم ١/٥٦] .

ثم أراد الحق سبحانه أن يوضح الأمر أكثر فقال :

﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) ﴾ [يوسف]

والزهد هنا هو حيثية الثمن البَخْس ؛ فهُم قد خافوا أن يبحث عنه أبوه أو صاحبه ؛ وكأنهم قالوا لأنفسهم : أى شىء يأتى من ورائه فهو فائدة لنا[1] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ[2] عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) ﴾

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٧٩) : « قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) ﴾ [يوسف] قيل : المراد إخوته . وقيل : السيارة وقيل : الواردة . وعلى أى تقدير فلم يكن عندهم غبيطاً اى : ان يوسف لم يكن مصدر سرور لاحد منهم ، لا عند الإخوة ، لان المقصد زواله عن أبيه لا ماله ، ولا عند السيارة لقول الإخوة إنه عبد أبق منا ـ والزهد قلة الرغبة ـ ولا عند الواردة لانهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم ، ورأوا أن القليل من ثمنه فى الانفراد أوْلَى » .

(٢) ثوى المكان ، وثوى به يثوى : حله وأقام فيه واستقر به ، فهو متعد ولازم واستعمل القرآن اللازم ، فقال : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ (٤٥) ﴾ [القصص] أى : مقيماً عندهم . والمثوى : اسم مكان أو مصدر ميمى . قال تعالى : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ (٢١) ﴾ [يوسف] أى : إقامته . أى : اكرمى يوسف وعبّر باسم المكان عن الحالّ فيه مجازاً مرسلاً علاقته المحلية. [القاموس القويم ١/١١٣] .

وكان للشراء علَّة ؛ فهو قد اشتراه لامرأته ليقوم بخدمتها ، وكانت لا تنجب وتكثر في الإلحاح عليه في طلب العلاج ، وتقول أغلب السير : إن مَن اشتراه كان ضعيفاً من ناحية رغبته في النساء .

وهذه اللقطة تبين لنا الفساد الذي ينشأ في البيوت التي تتبنى طفلاً ، لكنهم لا يحسبون حساب المسألة حين يبلغ هذا الطفل مبلغ الرجال ، وقد تعوَّد أن تحمله ربة البيت وتُقبِّله ، وتغدق عليه من التدليل ما يصعب عليها أن تمتنع عنه ؛ ولأن الطفل يكبر انسيابياً ؛ فقد يقع المحظور وندخل في متاهة الخطيئة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. (٢١) ﴾ [يوسف]

وهذا يعني أن تعتني بالمكان الذي سيقيم فيه ، وبطبيعة الحال فهذا القول يقتضي أن تعتني بالولد نفسه ؛ على رجاء أن ينتفع به الرجل وزوجته .

ولسائل أن يقول : كيف ينتفع به الرجل ؛ وهو عزيز مصر ، والكُلُّ في خدمته ؟

ونقول : إن النفع المقصود هنا هو النفْع الموصول بعاطفة مَنْ ينفع ؛ وهو غير نفع الموظفين العاملين تحت قيادة وإمرة عزيز مصر، فعندما ينشأ يوسف كابن للرجل وزَوْجه ؛ وكإنسان تربَّى في بيت الرجل ؛ هنا ستختلف المسألة ، ويكون النفع مُحمَّلاً بالعاطفة التي قال عنها الرجل :

﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا.. ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف]

وقد علمنا من السِّيَر أنهما لم يُرزَقا بأولاد[1] .

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف]

وقد بدأ التمكين فى الأرض من لحظة دخوله إلى بيت عزيز مصر ليحيا حياة طيبة ؛ وليعلمه الله تأويل الحديث ؛ بأن يهبه القدرة على تفسير الرُّؤى والأحلام ؛ وليغلب الله على أمره .

ولو نظر إخوته إلى ما آل إليه يوسف عليه السلام فسيعرفون أن مرادهم قد خاب ؛ وأن مراد الله قد غلب ؛ بإكرام يوسف ؛ وهم لو علموا ذلك لَضَنُّوا عليه بالإلقاء فى الجُبِّ ، وهذا شأن الظالمين جميعاً .

ولذلك نقول : إن الظالم لو علم ما أعدَّه الله للمظلوم لَضَنَّ عليه بالظلم .

وساعة يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ..﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف]

فهذا قول نافذ ؛ لأنه وحده القادر على أن يقول للشيء كُنْ فيكون ؛ ولا يوجد إله غيره ليرد على مراده .

---

(١) قال ابن عباس : كان حصوراً لا يُولد له ، وكذا قال ابن إسحاق : كان قطفير لا يأتى النساء ولا يولد له ، فإن قيل : كيف قال (أو نتخذه ولداً) وهو ملكه ، والولدية مع العبدية تتناقض ؟ قيل له : يعتقه ثم يتخذه ولداً بالتبنى ، وكان التبنى فى الأمم معلوماً عندهم ، وكذلك كان فى أول الإسلام ، ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٨٢) .